

المحاضرة السابعة : استراتيجية التفكيك (الأصول والامتدادات).

1_ تمهيد .

2_ ماهية التفكيك .

3_ التفكيك وفلسفات ما بعد الحداثة .

المحاضرة السابعة : التفكيك Déconstruction

(الأصول والامتداد)

1- تمهيد :

عُرفت التفكيكية على أنها حركة فكرية في "الأدب والفنون" ، جاءت نتيجة الجهود النقدية التي قام بها جاك دريدا (jaques derrida) الذي نادى بتفكيك أو تقويض اللغة وهدم قوانينها ، وعلى الرغم من الصدد الذي عرفته هذه الحركة من طرف بعض المناهج اللغوية البنيوية ، إلا أنها وجدت لها مكانا في حقول معرفية أخرى كالهندسة مثلا التي استفادت من أفكار التفكيكية في الجانب المعماري معتبرة هذه الأفكار تنطوي على قوة شحذ هائلة للعقل والفكر ، وهو ما يحقق للمشاهد لذة ومنتعة عظيمة في تحقيق نفسه كذات مفكرة ومبدعة ، فما أحدثته عمارة التفكيك جاء خلافا لعمارة الحداثة في طريقة تصميم الفراغ المعماري .¹ وعلى الرغم من تغلغل وامتداد هذا الفكر في الكثير من مناحي حياة الإنسان المعاصرة ، إلا أنني سأحاول من خلال هذه الورقة البحثية تتبعه في أكثر هذه المناحي أهمية وخطورة وهي اللغة بما أنها منتجة للأفكار ، وحقبة الأفكار ما هي إلا انعكاس للوجود....

ولكن قبل التوغل في أرض التفكيكية التي بلا حدود ، وعالمها المكشوف الذي بلا سقف دعونا بداية نطرح التساؤلات التالية :

ما التفكيك ؟ ما هي مدخلات هذا التفكير الذي يزعم بأنه يقدم فلسفة جديدة للغة ، وما هي مخرجاته ؟

هل استطاع فعلا أن يحزّر العقل الإنساني من سجن اللغة ، أم أن مشروعه لم يقدم سوى وعود كاذبة مضللة ؟

بداية لمعرفة مدخلات هذا الفكر لا بد من تحديد مفهومه ، والكشف عن أهم القيم المشتركة بينه وبين الفلسفات السابقة عنه والمعاصرة له ؟

2- ماهية التفكيك:

أ- مفهوم مصطلح التفكيك عند جاك دريدا:

استعمل جاك "دريدا" مصطلح (التفكيك / déconstruction) لأول مرة في كتابه (علم الكتابة) "الغراماتولوجيا" / "de la grammatologie" ، متأثرا في ذلك بمصطلح التفكيك لدى "مارتن هايدجر" الذي شغله في كتابه الكينونة والزمان) وليس التفكيك عند "جاك دريدا" بالمفهوم السلبي للكلمة ، حيث ترد كلمة

التفكيك في القواميس الفرنسية بمعنى الهدم والتخريب لكن ترد في كتابات "جاك دريدا" بالمعنى الايجابي للكلمة بالمفهوم الهيدجري أي ترد كلمة التفكيك من أجل اعادة البناء والتركيب وتصحيح المفاهيم وتقويض المقولات المركزية ، وتعرية الفلسفة الغربية التي مجدت لقرون طوال مفاهيم مركزية ، كالعقل ، الوعي ، والبنية ، والمركز ، والنظام ، والصوت ، والانسجام في حين ان الواقع قائم على الاختلاف والتلاشي والتقويض والتفكك وتشعب المعاني وتعدد المتناقضات وكثرة الصراعات التراتبية والطبقية ويعني هذا أن "دريدا" يعيد النظر ، عبر مصطلح التفكيك ، في مجموعة من المفاهيم التي قامت عليها الأنطولوجيا والميتافيزيقا الغربية تقويضا وتفجيرا وهكذا فمصطلح التفكيك ليس بمعنى الهدم السلبي ،

وليس بمعنالنفي أو الرفض أو التقويض والانكار كما في فلسفة "نيتشه" بل بمعنى إعادة البناء والتركيب وتصحيح الأخطاء وفضح الأوهام السائدة²

لا يمكننا الشروع في الحديث عن الأصول المعرفية للتفكيكية دون أن نموه بالحديث مبدئيا ما تعنيه مفردة تفكيكية ، حتى يتسنى ربط العلائق بين المفاهيم التفكيكية وأصولها المعرفية. يصعب على الباحث في هذا الموضوع تحديد مفهوم دقيق له أو تحديد دلالة ثابتة وقارة كونه يشير الى تيار فلسفي ونقدي يرفض التعريف والتحديد ، كما أنه لا يتصف بصفة واضحة " إذ يتخذ التفكيك مظاهر عديدة فمرة يبدو موقفا فلسفيا وتارة أخرى يكون استراتيجية سياسية أو فكرية ومرة ثالثة يبدو طريقة في القراءة.

فإذا ما عدنا إلى مصطلح التفكيك في حد ذاته فقد يدل " في البداية على التهجم والتخريب وهي دلالات تقترن عادة بالأشياء المادية المرئية لكنه في مستواه الدلالي العميق يدل على تفكيك الخطابات والنظم الفكرية الاستغراق فيها وصولا إلى الإمام بالبؤر الأساسية المطمور فيها ، أي ان مجال استغلال التفكيك هو دلالاته غير الثابتة ، بحيث يتعذر على الباحث تحديد صفة قارة له أو هو منهجية للقراءة أو نظرية في اللغة أو استراتيجية في التلقي أو منهج نقدي ؟ غير أن الغالب في اصطلاح الفلاسفة والنقاد هو أن التفكيك " لا يمكن عده منهجا خصوصا اذا ما أكدنا على الدلالة الإجرائية ، لذلك يمكن القول ان التفكيك لا يمكن اختزاله إلى أدوات منهجية والى مجموعة من القواعد والإجراءات القابلة للنقل.³

قام (ديريدا) في كتابه أحادية الآخر اللغوية Le monolinguisme de l'autre بمحاولة إعطاء تعريف أو تحديد للتفكيك فقال : " إذا ما كان لي أن أتجشّم بعض المخاطر وليحفظني الإله منها فإن هنالك تعريف واحد للتفكيك مقتضب يتميّز بالإيجاز ، اقتصادي كأنّه أمر من الأوامر ، ودون تحذلق هو : إنّه أكثر من لغة Plus dune langue " ⁴

وهذا تقترب وتتقاطع لغة " جاك دريدا " مع لغة التصوف التي تتصف بشعائرية وطقوس مميزة ، بحيث تبدي

" لغة المتصوف نفورها الشديد من الصرامة والأنساق ، وتُعلي من قيمة الشرود والحط من قدر العقل على أساس أنه قيد وتكلف بطريقة أو أخرى ."⁵ لذا فإنّ دريدا يدعونا إلى ضرورة

"الإنصات إلى ما يجري داخل أي حدث لغوي بالمعنى الفضفاض لكلمة إنصات . ينبغي أن تتعلّم كيف نرهف السمع لكل ما يجري ، حتى وإن كنا غير معنيين بهذا المقال أو ذاك ، ذلك أنّ اللغة تقول دائما أكثر مما تدّعي قوله ."⁶

لذا فمن الأهمية بمكان أن نتعلّم كيف ننصت إلى كل ما يقال وذلك للوصول إلى " ما لم يقله النص من خلال ما قاله ؛ إنه بحث في المضمور والمسكوت عنه واللامفكر فيه ، والمستحيل التفكير فيه."⁷

وبما أن التفكيك (أكثر من لغة) ، " فالنص هو أكثر من نص ، أي أنه توالد أكثر من صوت ، وتداول أكثر من ذات داخل هذا النسيج المكتوب ، فيتردّد الشبح في النص ويتكرّر في جملة لا نهائية من الازدواجات كنسخ لا أصلية تمنع من خلود واستمرار الأصل والأصلي ."⁸

إنّ عملية الاستنساخ في النصوص هو تمثيلية لا محدودة ، فالكتابة متعددة الأداء كثيرة الأصداء ، تتشابك في أغوار النصوص نصوص أخرى ، ويكون التفكيك بحثا عن الاختلاف بين الواقع والتمثيل ، بين الحقيقي والمتخيل بين الحضور والغياب ."⁹

وبالعودة إلى محاولة (دريدا) لتحديد التفكيك فإننا نفجأ أمام دهاء وحيلة هذا الرجل ففي الحقيقة هو لم يقدم لنا تعريف أو تحديدا ، وإنما أراد إيهامنا بذلك فقط ، إن ما قدمه ليس سوى هروب وانفلات من قبضة النظام والقانون مادام التحديد والتعريف هو من صميم التفكير

العقلي المنطقي ، وحتى لا يناقض جوهر فكرته التي أقام عليها استراتيجية قدّم لنا مسارات مفضية له

لمسار الأول: المعنى التعددي

(يسهم في تشكيل النص عدد من اللغات)

المسار الثاني: المعنى الفوضوي

إنّ لغة واحدة لا تكفي

المسار الثالث: المعنى المجازي

الاهتمام بالمسكوت عنه

التفكيك هو أكثر من لغة Plus d'une langue

لأصول الفلسفية للتفكيك

الثورة على الميتافيزيقا .

الثورة على فلسفة الحضور ، فالوعي ليس في الحضور ، الوعي في الغياب .

فلسفة الحضور تفترض دائما وجود دلالات عليا ، هذه الدلالات العليا تستقطب العقول وتستقطب الأفهام والأذواق إلى نقطة ثابتة وبنسبة واحدة ، وديريدا ضد فلسفة الحضور ، والبديل عنده تقرير فلسفة الغياب ، أو تقرير فلسفة الأخر المغاير ، أي هي حالة من النسبية أو نفي الحقائق .

في ظل مناهج ما بعد البنيوية واستراتيجية التفكيك تحديدا نحن نتعامل مع واقع يحدث انفصالا بين الحقيقة والقيمة ويفرض على اللغة أن تحدث فجوة بين دوالها ومدلولاتها ، وهذا ناتج عن تدمير أو إلغاء المرجعية ، إن حضارة الما بعديات على حد تعبير عبد الوهاب المسيري هي حضارة المتغيرات لا الثوابت ، حضارة تحاول إسقاط الإنسان من إنسانيته لتدرسه بمقولات غير إنسانية لذا فهي تدعو صراحة إلى نسف التاريخ وحتى حرق المكتبات ، وفي هذا الصدد يقول ليتش : " إنَّ التاريخ يثقل خطانا ، إذ أن مفاهيمه وقوالبه ، حدوده ومناهجه تميمت خصوبتنا ، إنَّ إجابات القرون الماضية تتراكم داخل مكتباتنا وتبرز فيها ، والأسئلة الأولى التي كانت حيوية في يوم من الأيام ، نادرا ما تطاردنا اليوم ، نحن نجمع الحقائق اليوم من أرفف الموت ، إنَّ التاريخ والتقاليد يحملان الموت ، من هنا فالتدمير ضرورة ، إن لون الأمل أسود."¹⁰

إن حرق المكتبات ونسف التقاليد في نظر هيديجر وليتش هي عودة إلى المنابع الأولى للغة ، باعتبارها الموقع الحقيقي الذي تكشف فيه الكينونة عن حضورها ، فالتقاليد المتراكمة المتجمدة حجت عنا التسمية الأولى للأشياء ، وجعلت اللغة قاصرة ، لهذا فإن مهمة الناقد التفكيكي في استخدامه لهذه اللغة القاصرة ، أن يفككها باستمرار ليفضحها ويكشف زيفها . فالتفكيكية كتمارسه نقدية أدبية تفكك النص لتكشف أن ما يبدو عملا متناسق وبلا متناقضات ، هو بناء من الاستراتيجيات والمناورات البلاغية ، إن فضح ذلك البناء ينسف الافتراض بوجود معنى متماسك ، معنى غير متناقض ، ومفهوم يمكن تفسيره بشكل واضح .

3_ التفكيك وفلسفات ما بعد الحداثة .

-القيم المشتركة بين التفكيك وفلسفات الحداثة وما بعدها :

تشرك استراتيجية التفكيك مع فلسفات الحداثة وما بعدها في مجموعة من القيم من بينها :

أولاً : أنها ضد العقلانية و الحقيقة الموضوعية :

توصف اتجاهات ما بعد الحداثة ومن بينها- التفكيكية – "بأنها نزعات معادية للعقل ، وهي قيمة تعود إلى "فردريك نيتشه" ، والواقع أنّ الكثير من الطرق الرئيسية والفرعية لاتجاهات ما بعد الحداثة تعود إلى "نيتشه" ، ومعظم النقاد والدارسين يعتقدون بأنّ استراتيجية التفكيك هي مجرد تغليف أنيق جذاب للفلسفة النيتشوية التي ترى بأنّ " صنم الفلاسفة الأكبر هو العقل ، لقد آمنوا بقدراته على اكتشاف الحقيقة والوجود ، وجعلوا منه حاكما مطلقا ، وجعلوا من قوانينه قوانين الوجود ، وبدأوا يخلعون عليه صفة القداسة والسيادة ، وتحول من كونه أداة للحرية إلى أداة للقمع والقهر ، وقد نظر "نيتشه" إلى المنطق وقوانين الفكر على أنها مجرد أوهام ضرورية للحياة ، وأدوات للتملك والسيطرة ، فهي ضرورية للعقل كي يقوم بالتفكير ، لكنه ما يلبث أن يفرضها على العالم والوجود ، ومن ثمّة يدعي أنّها مستمدّة منه ونابعة من داخله في حين أنّها أوهام من خلق العقل ولا تمت للواقع بصلة ."¹¹ أما على صعيد المعنى والأخلاق فيرى " نيتشه" أنه مادامت كل الأمور نسبية إذن فكل الأمور متساوية ، وإذا كانت كل الأمور متساوية ، إذن لا معنى ولا أخلاق ، وأي حديث عن المعنى والأخلاق هو أوهام ، الأخلاق أساطير ابتدعتها بعض البشر بسبب فائدتها لكن لا يوجد داخلها أي حقيقة ، الحقيقة نفسها – باعتبار العالم متحرك- هي أسطورة ابتدعتها الإنسان بسبب فائدتها .وبهذا تكون فلسفة " نيتشه أثبتت إرادة القوة ، وهو ما يعبر عنه قائلا : " أقوى وأسمى إرادة في الحياة لا تتمثل في الكفاح التافه من أجل الحياة ، وإنما في إرادة الحرب ، إرادة السيطرة ."¹² وهكذا أسهمت هذه الفلسفة في تنامي الفكر الامبريالي الغربي وتنامي الفلسفات المناهضة للعقل والحقيقة ، واستراتيجية التفكيك من بين هذه الفلسفات التي تمارس العنف على اللغة من خلال تدمير قوانينها المستندة في جوهرها على مبدأ التقسيمات الثنائية ، وفي هذا الصدد يرى "دلوز" – وهو أحد فلاسفة ما بعد الحداثة – " أن إحدى مهام الفلسفة الآن هي الإغلاء من قيمة السلب في الفكر ، أو العشب ضد الأشجار ،

التعددية ضد الشمولية ، قوة النسيان ضد الذاكرة ، الجغرافيا ضد التاريخ ، الخط ضد النقطة ، ويرى "دولوز أنه لحلّ مشكلة الثنائية لا بد أن تحدث ثورة في مجال اللغة ، أن نناضل ضدها وأن نبتكر طرقاً مختلفة للتعبير ، فموطن الثنائيات هو اللغة ، "إن اللغة مؤسسة في عمقها على التقسيمات الثنائية : مذكر-مؤنث ، مفرد - جمع ، تركيب اسمي تركيب فعلي ، وهكذا فنظرتنا للشيء ونقيضه تنطلق من داخل اللغة ، إذ ينبغي تحرير اللغة من منطق التعارضات الثنائية . يمكننا دائماً إضافة ثالث إلى اثنين ، ورابع إلى ثلاثة إلخ ، وحتى في وجود حدين فقط فهناك بين الحدين عناصر لا يمكن ضمها إلى أي منهما (المذكر والمؤنث والمخنث) ، ينبغي في نظر " دولوز " إحلال حرف العطف "واو" محلّ العلاقة "أو".¹³

ويعتقد أصحاب هذا الرأي بأن أشياء العالم الخارجي -بما في ذلك اللغة- لا تسير وفق قوانين محددة ، إنما هي في صيرورة دائمة وتدفق مستمر ، ومن المستحيل وجود قانون يحددها أو يستوعبها إنّما القوانين مجرد أداة وحيلة اخترعها العقل فقط كي يقوم بعملية الإدراك ، وبهذا تكون فلسفة " نيتشه " قد مهدت الطريق أمام مقاربات واستراتيجيات ما بعد الحداثة لنقد الميتافيزيقا ونقد العقل وربما هذا ما جعلها ترتقي في أحضان الفن بوصف الميدان البديل الذي تغيب عنه مفاهيم الحقيقة والعقل والضرورة بوصفه منتجاً للزيف والوهم ، لهذا فحركة ما بعد الحداثة توصف على أنها حركة جمالية تعلي من شأن الجمالي بوصفه بديلاً معاصراً للعقلانية ، ومن الجسد والرغبة بوصفه بديلاً للعقل والفكر ، ومن الصيرورة والاختلاف بديلاً لقوانين الهوية والأنسجام ، وقد استمر الخط النيتشوي في التضخم بعد الدعم الذي تلقاه من فلاسفة النظرية النقدية وفلسفة "هيدجر " ليصل إلى أقصى إمكاناته وقدراته الكامنة عند فلاسفة ما بعد الحداثة ، وهذا ما جعل " جاك ديريدا " -كما سنرى- يجعل من " تفكيك الانساق الميتافيزيقية التي شيدها العقل المحض هدفاً لمشروعه التفكيكي".¹⁴

ثانياً : أنها فلسفة ضد السلطة

لهذا أسقطت كل المقاربات الفلسفية التي تعلي من شأن الميتافيزيقا ، كما ثارت أيضا على الفلسفات التي تعلي من قيمة العقل البشري ، ورأت بأن هذا العقل لم يجلب للإنسانية سوى الدمار والخراب (الحربين العالميتين ، الحرب الباردة ...إلخ) ، إذن تعتبر استراتيجية التفكيك نفسها مقارنة جديدة تعطي تصورا مختلفا لعلاقة الإنسان بالكون ، لهذا فهي ترفض أن تكون امتدادا لمشاريع فلسفية سابقة ، خصوصا تلك المشاريع التي ترى بأنها لم تقدم شيئا للإنسان وإنما قامت باستعباده والحد من حريته

فلسفة العصور الوسطى قامت بسجن الإنسان داخل معتقدات غيبية ، بينما فلسفة عصر النهضة فقد قيدت حريته من خلال صياغة قوانين منطقية بعيدة كل البعد عن جوهره ، لهذا فهي ترى نفسها بأنها نزعة تحررية بامتياز ، ولو أمعنا النظر في بعض تصوراتها التي صبغت النقد بما أن النص الأدبي هو الحقل المفضل لتجريب مثل هذه التصورات ، خصوصا وأنها ترى بأن "الفن هو الوحيد الذي ينفلت من سلطة العقلانية"¹⁵ لوجدنا آثار هذه التصورات واضحة إذ أنها ضد سلطة المؤلف التي قوضتها المناهج البنيوية ، والتي أثبتتها مقولة " رولان بارت " الشهيرة (موت المؤلف) ، غير أنها حينما أقرت بإلغاء هذه السلطة لم تمنحها للقارئ كما يتصور البعض ، وإنما أدخلت هذا الأخير في لعبة المداليل الهاربة والمراوغة دوما ، وبالتالي ليست هنالك أية سلطة على النص .

بعد هذا العرض المجمل لأهم القيم الأساسية المشتركة بين فلسفات ما بعد الحداثة ، سأعرض الآن بشيء من التفصيل لهذه الاستراتيجية في شقها المتعلق بفلسفة اللغة ، فيا ترى ما هو موقفها من الدرس اللساني الحديث القائم أساسا على منطقة اللغة ، أو جعل اللغة قابلة للإدراك من خلال قوانين العقل ، وما هي البدائل التي تقدمها لتوصيف كيفية تعامل الناقد التفكيكي مع هذه اللغة .

الإحالات :

¹-Nouby Mouhamed Hassan :Architactural space from Modernism To Deconstruction :A critical Overwirw , Jurnal of Engineering sciences ,Assiut University Vol.35 No.3,May 2007,pp839.

²المرجع السابق نفسه ص 32.

- كوللر جوناثان ، التفكيك ، ضمن كتاب البنيوية والتفكيك مداخل نقدية ، مجموعة من الباحثين ، ترجمة حسام نايل ، ط1 ، عمان ، 2007 ، ص147.

- عبد الله عادل ، التفكيكية سلطة العقل و ارادة الاختلاف ، دار الحصاد ، دمشق ، ط1 ، 2000.

³-المرجع السابق نفسه 147.

- عناني محمد ، المصطلحات الأدبية الحديثة ، دراسة ومعجم عربي / انجليزي ، الشركة المصرية العالمية للنشر -- لونجمان ، ط3 ، القاهرة ، 2003 ، ص131.

- محمد رضا حكيمي (دكتور) المدرسة التفكيكية ، دار الهدى للنشر ، لبنان ، ط1 ، 2000 ، ص13,26,27.

⁴- جان غردان : المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا .تر:عمر مهيبل ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2007.ص165.

⁵- أيان الموند : التصوف والتفكيك ، تر: حسام نايل ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، عدد1740، ط1، 2011، ص35.

⁶- المرجع نفسه ، ص169.

⁷- كيجل مصطفى : الألسنية والتأويل في فكر محمد أركون ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1، 2011، ص 118 وما بعدها.

⁸- محمد بكاي : مقولة الشبحية عند جاك دريدا ، ص145.

⁹- محمد بكاي : مقولة الشبحية عند جاك دريدا ، ص145.

¹⁰- عبد العزيز حمود : من البنيوية إلى التفكيك، ص169.

¹¹- بدر الدين مصطفى : حالة ما بعد الحداثة في الفلسفة والفن ، سلسلة الفلسفة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ط1 ، 2013، ص72.

- ينظر أيضا : عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك ، ص

¹²- ينظر: محمد سالم سعد الله : ما وراء النص ، عالم الكتب الحديث ، الموصل ، ط1 ، 2008، ص14.

¹³-بدر الدين مصطفى : حالة ما بعد الحداثة في الفلسفة والفن، ص98.

¹⁴- بدر الدين مصطفى : حالة ما بعد الحداثة في الفلسفة والفن ، ص76.

¹⁵- المرجع نفسه ، ص77.